الفصل الثامن والستون

وفى رحلتنا إلى مصر فى سفينتنا شاهدنا على ضفتى النيل الحدائق المبهجة وخرجنا أولاً من دمياط ومضينا مسافة قدرها ستون ميلاً ومقابل دمياط أرض خالية سبخة، ولا وجود فيها لعمران ولكن فى طرف دمياط حدائق من قصب السكر، وفى هذه الديار يسمونها القرى وبيوتها أكواخ ولا وجود فيها لبيوت فخمة، لأن فى أرضهم ينبت الأرز، وأرضهم أرض مستنقعات ولا تحتمل بناءًا ثقيلا، ولا تروى فيها أرض الأرز ولكن فيها القمح وليس فيها فول ولا حبوب لأنها أرض ذات ماء والأرز ينبت على الدوام فى الماء يا له من مشهد عجيب.

وفى هذه الأرض يفيض ماء النيل ولا ينقص وقد اجتزنا القرى التى فى أرض دمياط إلى فارسكور.

أوصاف منزل فرسكور فى مدينة فارس القديمة

إنه منزل بناه الملك فرسكور بن مصرايم، وقد عمر ألف سنة وملك مائة بلد، وكان له مائة ألف فارس جوادهم أبلق وألف فارس جوادهم أشهب، وهى إقليم التزام دمياط وقضاء يدر مائة وخمسون أقجه إلا أن هذا المبلغ يمنح غالبًا لقضاة دمياط وفى هذه الناحية قرى تزرع الأرز فيها كلها، وعلى ضفة النيل مدينة تبعد عنه مائتى خطوة وتقع على ربوة وبها ألف بيت وسبعة عشر محرابًا وست منارات وثلاثمائة دكان، وثلاث مقاه وحمام، ولكنها تخلو من السوق والعمارات والمبرات والسبل والمدارس، ولكن فيها ثلاثة خانات عظيمة، ويقام فيها سوق مرة كل أسبوع، ويتكسب أهلها من حياكة الثياب المنقوشة ولكل منهم طرز، وبها ثلاثمائة دكان تقدم المال إلى الملتزم إنها مقر لمن يصنعون الثياب المنقوشة وأرز وثياب فرسكور واسعة الشهرة.

وتينه التى زرناها تقع شرق البحيرة المذكورة، وجوها لطيف وبها كثير من النخل والحدائق، وبين دمياط والنيل مدينة جميلة وفى قبالتها:

كفر سليمان أغا

فى إقليم الغربية وبها جامع ذو منارة وثلاثمائة بيت وتجاهها فى إقليم الشرقية:

بلدة شرباز

وبها مائة بيت وجامع ومنارة وقرى معمورة، وفيها قبر دفن فيه الشيخ شرباز، وبهذه المحلة تتم حدود دمياط، وهى تحت حكم حاكم الشرقية وقبالتها فى أرض الغربية:

بلدة ميت أبو غالب

وبها جامع ذو منارة ومائة وخمسون بيتًا ومقهى، وعند هذه المحلة يتعرج النيل تارة ذات اليمين وتارة ذات اليسار وقبالتها فى أرض الشرقية:

بلدة رأس الخليج

وهى التزام، وبها ثلاثمائة بيت، وبها جامعان، ووكالتان ومقهى وستة دكاكين، وقد دفن فيها الشيخ غزوان، والشيخ حسن أبو تقى الدين، والشيخ محمد عجمى وعلى بعد عشرين ميلاً جنوبها وفى إقليم الشرقية:

بلدة ميت ابو عبد الله

ويسمون القرية ميت وهى التزام وبها مائة بيت وجامع ذو منارة، وتجاهها فى أرض الغربية:

بلدة طهريه

وبها مائة وخمسون بيتًا وجامع وقبالتها فى أرض الشرقية:

بوشاط

وعدد بيوتها مائتان، وبها جامع ذو منارة. وفى المقابل منها فى أرض الغربية:

بلدة دِنْجِى

وبها جامع وفى جانب المنصورة بلدة أبادان.

أوصاف محلة مشاق

إنها التزام الكتخدا القوندقجى مصطفى وبها ستمائة بيت وجامع ومقهى ووكالة، وفيها أسواق صغيرة، ولا وجود فيها لحمام ولا سبيل، وتجاهها فى أرض الغربية:

مدينة المنصورة

وهى فى الجانب الشرقى، وقد عبرنا إليها، وتجاوزناها خمسين ميلاً وبلغنا مدينة سَرْسَه.

أوصاف محلة شربين

إنها محلة كبيرة فى إقليم الغربية وهى قضاء كبير يدر مائة وخمسين أقجه ويمنح قاضيها مرتبًا، وفيها أربعون قرية معمورة، ويتحصل منها أربعة أكياس وبها ألف بيت وسبعة وبها سبعة محاريب كما أن بها جامعًا كبيرًا له منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وبها كذلك خمسون مسجداً ومدرسة وخمسون دكانًا، وأربعة مقاه يجتمع يوم الجمعة خلق كثير فى السوق وبجوارها:

كفر شربين

وبه مائة بيت وهو التزام، وتجاهه فى النيل جزيرة صغيرة وفى الجهة المقابلة حدود كاشفية المنصورة، وهى كاشفية معمورة قضاءُها يسمى قضاء مشاق، وقد سلف ذكر بلدة مشاق، وتقع هذه البلدة فى سهل منحرف فى شربين اجتزنا هذه المحلة إلى شربين، وقبالتها فى إقليم المنصورة:

بلدة بدرى

بها مائة بيت وجامع وهى التزام، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة بترا

وبها ثلاثمائة بيت وجامع ومقهى وهى التزام وبعدها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة محلة برمبال.

أوصاف محلة برمبال

إنها التزام، وبها مائة بيت وقد سألنا شيخ البلدة عن مقدار ما تؤدى من مال للدولة فما عرف، وبها عدة جوامع ومقاه ومساجد وخانات ودكاكين، وإنها بلدة فى مهب الريح ولا أعرف حمامًا بها، وفى تجاهها فى إقليم الغربية.

بلدة دياسط

وفيها دفن الشيخ دياسط، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة الخيارية

وقد وجدت بها ثلاثمائة بيت وجامع ذو منارة جميلة وفى جانب الغربية:

بلدة تاش

وبها ثلاثمائة وخمسون بيتًا وجامع ومقهى، وفى شرقها ولاية دقهل.

أوصاف ولاية دقهل

مدينة المنصورة أول من بناها أحد أبناء نوح أبو القبابط بيطر بن حام الأخ الأكبر لسام، وابن بيطر هذا يسمى دقهل، ولذلك تسمى ولاية إقليم المنصورة باسم دقهل، ومن بعد استطاب جوها من سلاطين مصر الصالح أيوب فزاد فى عمرانها فأصبحت كأنها روضة الجنات، ثم قدم إليها الأسبان الملاعين بسفنهم فاستولوا عليها وأقاموا بها ثم أغار عليها الملك الصالح أيوب انطلق نحو غزة، ثم رجع فاستعاد مدينة دمياط، أول الأمر، ثم استولى على مائتى سفينة للكفار، وعسكر فى المنصورة معسكرًا للكفار، وطوال سبع ليالٍ لم ينجو الكفار من الهلاك وهذا مسطور فى جميع التواريخ، ولذلك سميت مدينة دقهل بالمنصورة، وفى عام ٩٣٢ غادر الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب مصر الكنانة واتخذ المنصورة حاضرة لملكه، وعمرها ولم يَبْقَ الآن شىء مما شيده، وفى هذا العصر أقام له قصرًا على شاطئ النيل وبقى منه الآن قصر صغير أمام قصر كاشف المنصورة، وقد وافاه الأجل فى المنصورة، ونقل جثمانه إلى مصر ودفن فى جامعه، وبعد ذلك بعام شب حريق فى المنصورة وأتت النار عليها بأكملها حتى صار المعمور منها كذَرَّة فى الشمس أو قطرة فى البحر، والآن يعمرها الناس والمخلوقات.

الحمد لله وحده علم بما فى مدينة الصالح أيوب أى مدينة المنصورة من ولايات مصر المحروسة من المساجد والوكائل والمدرسة والحمامات والأسواق وضرائح الأولياء نفع الله تعالى المسلمين ببركاتهم فى الدنيا والآخرة آمين يا معين، ولهذا ذكرنا ووصفنا مدينة المنصورة، إنها كاشفية أخرى فى مصر لكن مع كونها حكومة كبيرة والعرب يغيرون عليها من وقت إلى آخر لذلك منحت لأمراء مصر، وليس فى قراها زعامة ولا تيمار ولكن فيها سبعمائة وسبع وثمانون من القرى والقصبات والمدن، وكلها التزام، وهذه القرى المذكورة تقدم فى العام ثلاثمائة كيس إلى السلطان إنها قضاء شريف.

وفى هذا الإقليم:

قضاء ميت غمر

قدم مائة وخمسين أقجه، وهى قضاء شريف، وقد ضم هذا القضاء إلى المنصورة، ومنها يتحصل حوالى عشرة أكياس، وحاكم المنصورة يقدم المال الأميرى، وهو ملتزم يقدم فى الصيف والشتاء أربعين كيسًا، ويفيض له عشرة أكياس، وقد يقدم عشرين كيسًا ولهذه البلدة أربعة يفتون على المذاهب الأربعة ولها نقيب أشراف وقائد للانكشارية وعزب، ولكن الجند كثير، وعلى شاطئ النيل حدائق كثيرة وورود وريحان ورياض وتسعمائة بيت جميل وقصور فخمة وهى مدينة جميلة، ومن ظهر عليها على بعد ميل أظهر إعجابه بها، وبها ثلاثمائة محراب وفيها جوامع للسلاطين والعظماء والأعيان وبين السوق السلطانية والمحكمة والجامع الكبير، وهو جامع السلطان الصالح، وطوله مائة وثمانون خطوة وكذلك عرضه، وله سقف منقوش مقام على ثمانين عمودًا من الرخام، ومنارته من ثلاثة طوابق وله قبة، وعلى بابه الأيمن كتب عليه (تعمير رجب شورباجى سنة ١٠٨١)، إنه جامع عتيق، وعلى شاطئ النيل جامع الصغير وجامع المحمودية وجامع آخر على شاطئ النيل أيضًا طوله وعرضه مائة خطوة وعشرة، وله بابان جانبيان وباب للقبلة ومنارة على الطرز الرومى وهى من طابق واحد، وداخل الجامع خمسة عشر عمودًا وليس له حرم، أما على شاطئ النيل فله موضع فى جوانبه الأربعة صفف وهو موضع يستحق المشاهدة، ويجتمع الناس تحت ما به من أشجار الجميز والصفصاف وبعضهم يصيد السمك من إحدى مواضعه، وبعضهم يتوضأ وبعضهم يصلى، وبه دار شفا ومقهى يشرب فيها القهوة اليمنية، إنه مكان للراحة والمتعة وبعد الأذان والصلاة يثنون ويترحمون على محمود بانى هذا الجامع.

وعلى شاطئ النيل فى الطريق العام جامع يقال عنه «كاشف النيل»، وهو مرتفع أبيض وهو وقف متين وكان غاية فى العمران فى حياة صاحب الدويرات، وفى السوق جامع رضوانية، وجامع الحيدرية وجامع أمير على الفرحانى وجامع ريحانية وجامع الخطاى وجامع السادة الكنانية يقع على شاطئ النيل، بل فى جنوب المدينة وعلى شاطئ النيل والطريق العام جامع إدريس وجامع ابن قانصو، وجامع جعفر أغا كان فى الأصل

زاوية ثم أعيد بناءها لتكـون جامعًا. وفى نهاية الناحية الشرقية للمـدينة جامع مصطفى أغا الجديد، وهذه الجوامع سالفة الذكر عامرة بالمصلين، ولا نعرف جوامع أخرى.

الزوايـا

أما الزوايا فمنها زاوية الشيخ الملبـاوى وزاوية منية الدولة وزاوية الأمير حسن وزاوية ابن جعفر، وزاوية الغـرابى، وفى السوق زاوية المعلقى وزاوية ابن يـاسين وزاوية الشيخ ابن عامر وزاوية مقدم فرهاد والزاوية الحمرا، وقد صلـينا فى تلك المساجد التى سبق لنا ذكرها، ولا نعـرف غيرها وعلى شاطـئ النيل ست مدارس وسبـعون مكتبًا للـصبيان، وأربعون سبيلاً وحَمَّـامان ولا يوجد سواهما، كما يوجد ثمـانى عشرة وكالة أولاً خان أمير دلاور وخان الأمـير مصطفى وخـان المحمودية وخان الكـنانية وخان الأميـر أحمد وخان عورت وخان مالكى وخان ابن ياسين وخان الشـيخ عبد الوهاب وخان مسلمانى وخان القاضـى أحمد وخان النيـل وخان القفاصين وخـان خشب وخان حطيـبة وهذه الخانـات وكالات معمـورة، ولا وجود لمبـانٍ أخرى واثنـان وأربعون رَبْعًـا فيهـا غرف للمريدين المتزوجين، وثمة أربعون أو خمسـون خانًا يسمى كُلّ واحدٍ منها الربع، وسبع معاصر أى طواحين زيت، وخـمسة وسبعون طاحونة تديرها الجياد، وفـيها من المقاهى أربعون مقـهى ومائة وخمسون دكانًـا ولكن ليس فيهـا سوق قائمة بذاتها، ولـكن لكل شىء، ويقام سوق عظيمة مرة فى كل أسبوع يحتشد فيها أربعون ألف أو خمسون ألف إنسان، إنهـا سوق القمح وسوق الـسمك، وسوق الخيل وسـوق الغنم وسوق الفـاكهة وسوق الشـيران، وهـذه الأسـواق تـوجـد فـى أمـاكن أخرى وعورت بازارى تقـع على شاطئ الـنيل إنهـا سـوق عجيـبـة، وطـرق هـذه الأسواق غير نظـيفة أما بقـية طرق الأسواق فطـرق واسعة نظيفـة، وتظلل جمـيع الأسواق نخلات، فـيتألف منهـا سقف عليها، وبذلك تكون الأسواق طيبة الهواء عند اشتداد الحر وطول هذه المدينة على النيل ألف ومائة خطـوة، ولجـمالـهـا وجـمال جوها يتـميز فتيانها وفتياتهـا بالجمال، وأهلها يكرمـون وفـادة الغـربـاء، وفيهـا عظـمـاء الأعيان، فـهم يبذلون الـقرى للمـجاورين والمسافـرين فأمـام بـاب دلاور الكاشـف يطعـم الفـقـراء لـيـل نهار، كمـا أن قوجه

مصطفى أغا يكرم المسافرين والمساكين، وفى المدينة ما لا يدخل تحت حصر من العلماء والمريدين والصالحين.

بيان بزيارتنا لكبار الأولياء

هذه ضرائح الصالحين الشيخ شرف الدين أقصرى والشيخ الطميهى مدفونان فى زاوية الشيخ ريحان كما دفن الشيخ سيدى على الأسمر فى الجامع الكبير، وثمة شيخ آخر سألت عنه فما وجدت جوابًا، وخارج المدينة فى جنوبها قبر عظيم للشيخ كنانية، وقد دفن أربعون من الأولياء فى مكان واحد، كانوا قديمًا من اللصوص ولكن الله هداهم وأصبحوا جميعًا أولياء وعلى رأسهم قطب الأقطاب شيخ الطريقة الكنانية، ويقام له مولد مرة فى كل عام، ويجتمع فى مولده حوالى أربعون ألف إنسان، وفى خيامهم يقام عشرة أيام وعشر ليال، وقد أغار لصوص العرب على ميدان ملقه أثناء انعقاد مولده، وقد نهبوا السوق واستشهد كثير من الناس، وفى التو والحال ظهر فى المدينة أربعون على رءوسهم العمامات الخضر يركبون الخيول الشهب ويحملون الرماح، فقتلوا هؤلاء اللصوص عن آخرهم، ثم غابوا عن العيون.

هذه مناقب قريبة العهد لم يَمْضِ عليها سوى سبعين سنة، ومنذ هذا الزمان لم يحضر أحد المولد، هذا ما مر بسمعى هذا ما أمر (طورنا مصطفى بك) كاشف المنصورة واجتمع فى المنصورة حشد كبير من الناس، وقد حضرت معهم ولله الحمد وقد دفن الشيخ عبد الجليل الملباوى فى ضريح عظيم، وبالقرب من ضريح الشيخ الملباوى ضريح الشيخ زبيبه والشيخ الخوّاص وإلى جانب المحكمة السيدة آسيه والشيخ عريان والشيخ كليبانى، ومداح رسول الله الشيخ سيدى محمد كميلى والشيخ منية الدولة وقد دفنا بجوار جامع إدريس كما دفن الشيخ طاهر والشيخ نصار والشيخ سند فى الجهة القبلية من المدينة بالقرب من جامع الأمير مصطفى، والشيخ سعد والشيخ حسن دفنا فى جامع الخطائى ودفن بجوار قبر الشيخ بهلول الشيخ الموالى كيرلى محمود أفندى، وهو من علماء الروم المشاهير فهؤلاء العلماء منهم من دفن فى ضريح ومنهم من دفن فى تكية، وقد زرت ضرائحهم ومررت وجهى الأسود على ضرائحهم رحمة الله عليهم أجمعين،

وقد تجولت فى هـذه المدينة وشاهدت كل ما فيـها وعقدت نيتى أن أزور مدينـة المنزلة، فركبت سفينة وانطلقنا إلى المنزلة.

وصف ما مررنا به من منازل فى طريقنا إلى المنزلة

رأينا تـرعة عظيمة فـى جنوب مدينة المـنصورة وبالقـرب من جامع مصطـفى أغا، ومضينا بالـسفينة فى ترعة صلاح الدين، وعـلى جانبيها ست وسبعـون قرية معمورة. ورأينا عزبة نزلنا عليها ضيوفًا.

أوصاف مدينة المنزلة القديمة

نزلنا فى دار الملتزم وتجولنا فيها لمشاهدتها، ويتفرع من هذه الترعة خليج على جانبيه بيوت معـمورة، على جانبى الـترعة حدائق وبساتـين، وعَبرها جسر من الخـشب على الترعة وعلى ضفّتيـها بساتين، وكل حديقة مـساحتها عشرة أو خـمسة عشر فدانًا، وفى كل منهـا يطيب الليمـون والتمر والرمان والتـين، ولكن لا وجود فيها لـلقمح، والأرز الذى فى المنزلة لا نظير له فى العالم بأسره، إنه أبيض ولذيذ، والبحيرة على مسيرة ربع ساعة من شمال المدينـة، والترعة التى تروى هذه المدينة تصب فـى هذه البحيرة، وهى التزام تابع لـلمنصورة، ويحكمـها أى من قبل كاشف المنـصورة حينًا والباشا أغـا حينًا ويقدم الباشـا فى كل عام كشوفية قدرهـا ست أكياس، وهى قضاء يدر مـائة وخمسين أقجه ولقاضيها فـى كل عام خمسة أكياس، وفى ناحية منهـا قرى للأرز، ويحصل من جميع القرى ست وخمسون كيسًا، كما أن الصيادين يصيدون كل عام سبعة أحمال من السمك وبها ألف بيـت وعشرة محلات وسبعون محرابًا، وفيها ثـمان خطب وفيما عدا ذلك مساجد، والجامع الكبير فيها يكثـر فيه المصلون، وكان معبدًا قديمًا، وقد أنشأ هذا الجامع وزير صلاح الدين يوسف، وهو القعقاع الـتميمى، عندما فتح هذه المدينة، ولا تعرف جوامع أخرى بهذه المـدينة، وزاوية الشيخ إبراهيم السلمونـى زاوية معمورة وفى هذه المـدينة ثلاث مـنارات، ومدرسة وسـتة مكاتـب للصـبيان وسبـعة سبل وخـمس وكالات، ومائة دكان منها ثـمانون مفتوحة وبقيتها موصدة، ولا سوق فيـها وبها ثمانية مقاه، وسوق للعطارين فيها جميل، وتقام سوق كل سبعة أيام وهى سوق الخيل والغنم

والجمال، ولا وجود لسوق سواها لأنها ليست مدينة عظيمة، وأهلها فقراء إنهم يأكلون السمك ويتكسبون بصيده، وفيها سمك عجيب، وفى الشتاء تأتى الوحوش والطيور إلى الحدائق فيتصيدها أهل هذه المدينة، وتشتهر المدينة بالقمصان البيض، وأهلها مشهورون بالجمال.

ضرائح المنزلة

دفن الشيخ محمد العقابى فى زاويته، ودفن إبراهيم السلمونى فى زاويته وبالقرب من القرافة الكبرى قبر الشيخ طاهر، وبالقرب منه دفن القعقاع الوزير، وبالقرب من قبر الوزير القعقاع التميمى دفنت الست صالحة رحمة الله عليهم أجمعين ولها مناقب كثيرة كأنها رابعة العدوية، والشيخ شهاب الدين الأنصارى من الصحابة الكرام، وهو مدفون بالقرب من زاوية الخياطين، وقبر الشيخ محمد الشامى بالقرب من سوق العطارين رحمة الله عليهم أجمعين، وما أكثر مناقب الأولياء، ولكننا نزلنا ضيوفًا فى هذه المدينة مدة يوم وليلة.

ثم بعد ذلك ركبنا السفينة، وعدنا إلى الترعة التى جئنا فيها وقد بذل الملاحون الجهد الجهيد فبلغنا مدينة المنصورة، ثم ودعنا الأعيان فى تلك المدينة، وركبنا السفينة وقبالة هذه المدينة:

مدينة طلخا

وبها ثلاثمائة بيت وعلى ضفة النيل جامع ذو منارة، وفيها شيخ انهدمت مقبرته عند فيضان النيل فوضعوه فى تابوت على مرأى من الناس، ومضينا إلى:

بلدة الشيخ رمضان

وبها مائة بيت وهى بلدة صغيرة وناحية المنصورة:

بلدة ميت خميس

وبها مائة بيت وجامع، وتجاهها على حدود إقليم الغربية:

بلدة ميت الفرقا

وبها مائتا بيت وجامع، وفى إقليم المنصورة:

بلدة ميت ويش

وبها ثلاثمائة بيت وجامع، وفى إقليم الغربية:

بلدة ميت عساس

وإلى جانب إقليم المنصورة:

بلدة نَوه سى

وكذلك فى حدود المنصورة:

بلدة ميت ثعبانيه

وفى جنوبها:

ميت المنية

وتجاهها فى إقليم الغربية:

مدينة لوط.

أوصاف مدينة لوط

إنها مدينة معمورة، وهى مرفأ لسمنوط، وهى على شاطئ النيل وتحوى ثلاثمائة بيت وهى قصبة جميلة والتزام، وكانت فى قديم الزمان مدينة قديمة وفيها آثار لقوم جالوط، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، ولقاضيها مرتب يقدم صدقة، وهو نائب الحاكم، وهذه المدينة تُدِرُّ فى كل عام خمسة أكياس، وقرى نواحيها تحوى اثنين وأربعين بيتًا وفيها ستة محاريب وثلاث خطب وفى مرفأها جامع علوى به أربعة عشر عمودًا عليها سقف، وله ثلاثة أبواب ومنارة منهدمة، وخان وحمام وستة مقاهٍ وخمسون دكانًا وسبعة سبل واثنا عشر مكتبًا للصبيان وعلى ضفة النيل محكمة.

وصف ضرائحها

الشيخ إسماعيل العَدْوِى وسيدى عبد الله الخلف وهما مدفونان فى مسجد الغدوى، ثم امتطينا خيولنا فبلغنا ضريح:

بلدة ابو على

وهى التزام الأمير مُصْـلُى أغا، وفيها نخيل وحدائق وثلاثمائـة بيت وقرى معمورة، تجاوزناها فبلغنا:

بلدة قيطاس أغا

وبها مائتا بـيت وجامع إنها قرية عامرة ولـكن يسكنها قبيلـة بنى حرام وهم أشرار. وتجاوزناها إلى الـشمال واجتزنا بقرى لا نعرف لـها اسمًا، كما عبرنا مـرورًا ببلاد على شاطئ الترعة، وفى هذه البلاد كثير من البساتين، وعلى مسيرة ساعة من سمنوط:

محلة الكبير

وهى العاصمة الـثانية لإقْليم الغربية، وهى مـدينة عظيمة، واسمها باللـسان القبطى زيحان لوقوعـها فى إقليم الغربـية الذى يقع غرب إقليـم الشرقية سماها الـروم الغربية ومحلة الكبير جزيرة تقع فى النيل بين إقليم الشرقية والبحيرة، وهى كنانة الله ابتداء من مصر، ثم المحلة، ثم رشيد، ثم دمياط، ثم منية ومنفلوط وهذه مدن كثيرة، ولكن هذه المحلة ليست معمورة فى يومنا هذا، ولكن فى سبعين موضع من أرضها طلاسم، وعلى حد قول المقريزى إنها من بناء مصرايم بعد طـوفان نوح وبناء على علم النجوم استطاب هذه المدينة مصرايم لطيب هوائها، وهذا ما حفزه على إنشائها، ولقد استولى عليها كثير من الملوك عـلى مر العصور، وبـينما كان الظـاهر بيبرس كاشـفًا لهذه المدينـة استطاب جوها، وفى زمـان ملكه جعل من هـذه المدينة الحاضرة الثانـية لملكه، وكان يـسكنها، وتجرى إلى الآن ترعـة إلى وسطها، وبالـقرب من قصر الكـاشف عليها ثـلاث قناطر، وعند العشاء تعزف فرقة موسيقية عند هذه القناطر وذلك طبق القانون السلطانى للظاهر بيبرس، وينال أفراد هذه الفرقة الموسيقية رواتبهم من الكاشف، إن هذه الفرقة الموسيقية تعزف على الدوام لأن هذه المدينة هى حاضرة البلاد الثانية.

وأمراء مصر الـذين فى درجة ميرمـيران وأتباعهم ألف وسـبع فرق من المستـحفظين وعليهم فى التزامهم أن يقدّموا مائتى كيس، وديوان مصر يختم بها حسابه، كما يُحَصَّلُ مائتين وخمسين كيسًا بعد المصاريـف، وحاكمها صاحب منصب عالٍ وهو يرأس الأمراء

ما عدا أمير الحج والدفتر دار، ويتقدم فى سيره الأمراء والكاشفين لأنه حاكم العاصمة الثانية للبلاد، ويصبحُ بعد ذلك أميرَ الحجِّ.

وفى إقليم الغربية ثلاثمائة وسبعون قرية معمورة وبها قاضٍ شرعى، ولا منصب فى مصر أعلى من منصبه، وقد تصدق مراراً بمبلغ خمسمائة أقجه على رجال الدين، وطبق القانون يجب أن يتصدق بأربعمائة وتسعة وتسعون أقجه، وثمة محكمة فى كل من سمنوط، وشربين وهذه المحاكم داخل هذه المدن وخارجها، إنها مدينة كبيرة، وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف والأعيان والانكشارية والعزب والسردار والچاوش، وليس فيها قبو قولو سردار ولا سباه كتخدا، ولا آلاى بيكى ولا جرى باشى ولا أصحاب زعامت، إن كل قراها تدر المال السلطانى، إنها مدينة معمورة تجرى من تحتها الأنهار، وهى فى منزلتها بعد مصر، وبها قصور عالية كثيرة الطوابق، وبها بيوت كبيرة وصغيرة قديمة الطراز مُجَصَّصَة، وعلى ضفة الخليج قصور كبار الأعيان تطل نوافذها على الخليج.

وفيها بساتين وفيها سبعون محلة، ومائة وأربعون محرابًا، سبعون منها تؤدى صلاة الجمعة فيها، وبها جوامع للسلاطين والأولياء، وبالقرب من مالك بك جامع بالى بك، وهو جامع على ضفة النيل، أربعة أعمدة له فى النيل، وقد بنى على هذه الأعمدة، وهو جامع علوى ويصعد إليه بسلم من اثنتى عشرة درجة، وله ثلاثة أبواب أحدها فى جدار القبلة، وهو يطل على الطريق المواجه لقصر البك، وله باب ينفتح على حوض وليس فى داخل الجامع أعمدة، وجوانب السقف مزخرفة ومذهبة، وهذا الجامع العلوى، تحته ستة دكاكين وله منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وقد كتب على باب منبره بالخط الجلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ.....﴾ [الاحزاب: ٥٦].

وبعده على ضفة النيل جامع (الصفا) وهو غاية فى الحسن ومنظره الجميل غاية فى الروعة، وعلى ضفة النيل كذلك تجاه قصر البك جامع خواجه عطار وله سقف منقوش بشتى الألوان ويقوم على ثلاثة وثلاثين عمودًا، ومحرابه من الرخام، ومنبره من الخشب المنقوش، وله ثلاثة أبواب أحدها للقبلة وهو يطل على السوق وله بابان جانبيان يفضيان

إلى السوق وفى جانبه الأيسر منارة من ثلاثة طوابق وفى أعلاه تعتش الطيور وتفرخ بها، وفى السوق بناء جديد هو جامع مراد الشورباجى وسقفه على ثمانية أعمدة من الرخام، وقد دفن فى هذا الجامع من أولاد الصحابة مثل عبد الله بن الزبير، ولهذا الغرض بنى الجامع، ويعتقد أن من يزوره يحقق مراده، وجامع الصمصات مقام على عشرة أعمدة وله منبر صغير من الرخام، ولا وجود لمثله فى البلاد وله منارة عالية طولها مائة وسبع عشرة خطوة، وكل خطوة تعادل ذراعًا، والصعود إليها عسير، وقد صعدت هذه المنارة وأشرفت ببصرى على المدينة فرأيت مدينة إرم ذات العماد، وقد بدت فيها أربعون منارة، وفى سوق العطارين الجامع الكبير، وقد بناه الشيخ أبو بكر طرنجى ووسعه من بعد الملك الظاهر، وبذلك صار جامعًا كبيرًا وطوله وعرضه مائة خطوة، ومنبر هذا الجامع ومحرابه من الطرز القديم، وفى حرمه الكبير قبة وسبيل، وفى داخل الجامع وخارجه مائة عمود رخامى عليها سقف منقوش، وفى الركن الأيسر لحرمه مِنَارَتَانِ كأنهما برجان، وعلى باب منبره الخشبى كتب بالخط الكوفى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ومقعد المؤذن على ستة قوائم رقيقة من الرخام، وهو من الخشب يشبه المقصورة.

ولا وجود لجامع أكبر من هذا الجامع فى هذه البلدة ويقام مولد فى كل عام بها يجتمع فيه مائة ألف إنسان، ومساحة الجامع طولا وعرضًا مائة وثمانية وخمسون خطوة، وله سقف على ثلاث وثمانين عمودًا وصحن الجامع غير مسقوف، والشيخ عبد الله مدفون فى ذلك الصحن الواسع، وبما أنه مدفون داخل الجامع فليس ضريحًا، ولكنه فى تابوت وفى هذا المكان شجرة نبق وقد ورفت ظلالها على حرم الجامع وخارجه، وهى تثمر أربع مرات فى العام الواحد منه فى حجم العين، وفى المدينة كذلك جامع الوزير يجتمع فيه جمع غفير من المصلين، وكذلك جامع ابن عباس الغمرى، وطوله وعرضه مائة وخمسون خطوة، ومنبره من خشب، وعلى يسرة محرابه كتابة، ويقول البعض إن هذه الكتابة من الزّبور وتحتها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ....﴾ [التوبة: ١٨]، وسقفه ذو ألوان يقوم على سبعة وثلاثين عمودًا وله ثلاثة أبواب، ومنارة

من ثلاث طوابق، صحنه بلا سقف، وفى الجانب الأيسر من جدار محرابه دفن الشيخ عباس غمرى، وجامع (تَعَبُّرْهَا) جامع صغير، وجامع الشيخ إبراهيم سقفه مقام على سبعة أعمدة، وهو جامع صغير مكشوف الصحن، وقد دفن فى حرمه الشيخ إبراهيم وعلى مقربة من هذا الجامع جامع الشيخ ديار وهو جامع صغير منارته قصيرة، وثمة جوامع كثيرة خلاف ما ذكرنا. ولقد رأينا كثيرًا من الجوامع الجميلة، كما أن الزوايا لا تقع تحت حصر وفى هذا البلد تسع مدارس وسبعة دور من دور الحديث، وسبعون تكية، لأن جميع أصحاب الطرق الصوفية فى هذه البلدة، وجميع أهل هذا الإقليم من أهل السنة، ومن التكايا تكية الشيخ عبد الرحمن المالكى، وتكية عبد الله درغام وإحدى عشرة تكية من تكايا السيد البدوى، والتكية البرهانية، وتكية صفافى، وتكية كميلى وهى تكايا معمورة، ومنها تكايا توزع فيها الصدقات ويبذل أصحابها فيها الصدقات وهم على قيد الحياة، وفيها مائة وعشرون مكتبًا للصبيان، وتوزع ثياب العيد على اليتامى، وبها مائتا سبيل، وبعض هذه المكاتب تقع فوق هذه السبل، وهذا هو قانون مصر. وبها خمسة حمامات، وبها صهاريج، ويوجد حمام للنصارى، لا يدخله المسلمون قط، وحمام بالى بك حمام لطيف، كما أن سبعة حمامات موصدة أما حمام الوفا فضريح، وبناؤه جميل وجوه معتدل، وحمامات القصور يزيد عددها على الألف، ويخرج المريدون مع الفجر إلى الخليج يستحمون فيه، وفيها سبعون خانًا، فى سبع عشرة منها يباع القمح والشعير والفول، وفى هذه البلدة تباع جميع الغلال، وبها ألفان وثلاثمائة وخمسة وأربعوون دكانًا، وجميع أسواقها مغطاة، وكل السلع موجودة فى هذه البلدة. وبها ثمانية وأربعون مقهى وهذه المقاهى مفتوحة ليلا ونهارًا وفيها المطربون والمداحون وفيها يجلس أهل العلم ليل نهار.

وفى هذه البلدة مائتا طاحونة زيت وثلاثمائة وثمانون طاحونة تديرها الخيل وبها عشرة مخابز وكل بيت فى البلدة مخبز معين لها. ولا حاجة بأهل هذه البيوت إلى الأسواق، ولكن للغرباء والمسافرين عشرة مخابز وشوارع السوق السلطانية واسعة

نظيفة، لأن النيل يجرى فى وسط هذه البلدة ومعظم قصورها وبيوتها الجميلة على ضفة الخليج، وأعيان الإقليم يلقى بعضهم على بعض السلام من قصورهم ويصيدون السمك من الكوات، ويسبح الفتيان فى النيل، وكل بيوت هذه البلدة مبنية بالحجر، ولها جدران وأبوابها ذات مصراعين، وسطوحها مجصصة وليس فى المدينة أحجار بناء وإذا مست الحاجة إليها فى هذه البلدة حملتها إليهم من مصر السفن عند وقت فيضان النيل، لأن النيل فى فيضانه يغمر أقاليم مصر كلها وتصبح أراضى مصر فى ماء الفيضان جزرًا، وثمة فرقة موسيقية تعزف فى دكان على الجسر، ونوافذ هذه الدكاكين تطل على النيل، ففى مصر ثلثمائة جسر بالقرب من سوق الغلال، وثمة دكاكين أخرى تطل نوافذها على الترعة وفى هذه المحلة مرفأ تأتى إليه السفن والقوارب بالغلال وثمة جسر فى جنوب البلدة على ترعة الصابونية يسمى جسر جعفر أغا إنه جسر عظيم من الحجر، وفى وسط صراطه كتب على لوحة مربعة من الرخام:

تأمل ترى ما شاده ألندن جعفر ∴ هو القاسمى مات إلى الخير يقصد

لقنطرة فيها يقول مؤرخ ∴ ثناء له فخر وعز يؤيد

سنة ١٠٧٣.

ولاعتدال جو هذه البلدة اشتهرت نساؤها بروعة جمالهن. كما أن الجند يلبسون فيها ثيابًا فاخرة. ويضع نساءها على رءوسهن قلانص من ذهب وفضة. كما يلبسن الحرير ويَسِرْنَ. وتشتهر هذه المدينة بالخبز الأبيض والطحينة والجبن أما صنعهم للسجاجيد الحريرية لا نظير لها فى العالم. إلا ما يصنع فى أصفهان كما يصنع المناشف وأنواع من الأقمشة الحريرية وفى هذه البلدة محلة لليهود ومحلتان للأقباط وبها ألف بيت وسبع كنائس. وفى سجل شيخ البلد أن تعداد أهل هذه البلدة سبعة آلاف وهى تصدر القطن وهو من أهم حاصلاتها. إن ذكر ما لا قيمة له مَمْلُولٌ. ولذلك اكتفينا بما ذكرنا. فخير الكلام ما قل ودل.

أوصاف ضرائح المحلة الكبرى

وقد ذكرنا من قبل كبار الأولياء الذين دفنوا فى الجوامع وعند باب المحلة عند نهاية الطرف الغربى للمحلة دفن الشيخ عبد المجيد الشاملى وضريحه تطل نوافذه على الطريق العام، وقد كتب على عتبة بالخط الجلى: (أنشأه السيد بن الحسين سيدى عبد الوهاب وسيدى عبد المؤمن أخيه سيد عبد المنعم).

زيارة ضريح المولى عبد الباقى بن محمود بن عطاء الدين حمالى زاده

هو متولى مدينة مصر، وكانت له هذه المحلة الكبرى ومات وهو مدفون عند رأس الجسر الذى على ترعة الصابونية فى ضريح على الطراز الرومى وقد كتب عليه تاريخ؛ ولأنه على الطريق العام يزار ضريحه، وكان فصيحًا ناصع البيان لذلك وردت ترجمته فى تاريخ المقريزى، وعلى مقربة منه على رأس الجسر ضريح المُلا على بن سنان، وفد من مدينة أسبارطه، وكان من علماء السلطان أحمد وعلى ضريحه تاريخ هو فى سنة ١٠٢٩ قدسنا الله بسره العزيز رحمة الله عليهم أجمعين، وعلاوة على ذلك آلاف من الضرائح، وقد مرغت وجهى على عتبته، والضرائح التى زرتها فى هذه البلدة سبعة وأربعون وقد شرفت بزيارتها ولله أحمد أنى نلت من حسن أغا الكاشف عشرة قروش وجودًا، وبعض ما يصنع فى المحلة، وودعت أحبتى وخلانى وبعد ساعتين، بلغنا قصبة سمنوط، وعبرنا النيل إلى إقليم الشرقية فبلغنا:

ميت أبو الحارث

وتجاهها فى إقليم الغربية:

ميت أبو صير

وفى المنصورة:

ميت بورو

وتجاهها بلدة بنيا، وفى المنصورة كذلك بلدة المنظرة، وفى الغربية بلدة ميت بدر وفى المنصورة أيضًا ميت دمسيس، وفى الغربية بلدة شوبران، وفى المنصورة كذلك ميت أشنى.

أوصاف قصبة شنباط[1] الكبيرة

تقع فى إقليم الغربية، وبها مائتا بيت وعدة جوامع ومساجد وأسواق صغيرة ومقاه، وهى مدينة كثيرُ رجالها ونساؤها، وقد نزلت ضيفًا على دار ضيافة فيها ذات ليلة، وفى الصباح مضينا إلى المنصورة فبلغنا بلدة:

شرنجى

وقبالتها فى الغربية بلدة:

دهنـور

وفى المنصورة مدينة ميت غمر العَظِيمة وقد أسلفت ذكرها، وتجاهها فى إقليم الغربية قصبة:

زفتـه

والتى سلف ذكرها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة بلدة:

معصره

وفى الغربية قبالتها فى بلدة:

مسـيد

وبجوارها بلدة:

وصـيد

وفى المنصورة بلدة:

ميت العـز

وفى الغربية:

ميت الحـارون

وفى المنصورة بلدة:

الصـفـين

وقبالتها فى الغربية بلدة:

تفهنى

وللشيخ داود العزب فيها ضريح عظيم، والذى ظهرت له كرامات ومعجزات ذكرت فى الكتب وفى كتاب طبقات الشعرانى أنه قطب عظيم له منزلة عبد القادر الجيلانى، وجنيد البغدادى وأحمد البدوى، وإبراهيم الدسوقى. ومضينا إلى هند يمنه، وفى إقليم المنصورة بلدة:

سندى

وقبالتها فى إقليم الغربية بلدة:

ميت برى

وفى المنصورة بلدة:

أشبون

وفى المنصورة كذلك:

كفر مويش

وقبالتها فى إقليم الغربية بلدة:

مِلَلَو

وفى المنصورة بلدة:

بنهى

وتجاهها فى الغربية بلدة بطاى وفى المنصورة بلدة رَمْلى، وتجاهها غربًا:

كفر أبو الطواقى

وفى إقليم القليوبية:

ميت عطار

وهى بلدة عظيمة كأنها قصبة وفيها تجمع حدود أربعة سناجق وهى سنجق الغربية وسنجق المنصورة وسنجق المنوفية وسنجق القليوبية. والسناجق الأربعة تسمع آذان ميت عطار لأن حدود كل منها متقاربة، وفى آخر إقليم الغربية بلدة:

سيدى خضر

وفى أول حدود المنوفية بلدة:

العطف

وآخر حدود الشرقية بلدة:

طحلة

وفى أول حدود إقليم القليوبية بلدة:

دجوى

وهى التزام أوزبك بك، واقتضت حكمة الله أن تكون قرى الحدود هذه مجتمعة فى أرض واحدة ودخلنا الحد الأيمن لإقليم المنوفية، ودخلنا الحد الأيمن لإقليم القليوبية، وفى إقليم منوف بلدة:

ميت عفيف

وهى تجاهها بلدة دجوى.

وبلدة طنط

تتبع قليوب، وتجاهها فى المنوفية:

بلدة برُشمس

وفى إقليم القليوبية بلدة:

برشوم

وتجاهها فى المنوفية بلدة:

أبو شعرا

وتجاهها على ضفة النيل بقية القليوبية.

أوصاف قصبة القليوبية

وقد كتب عنها المؤرخ أبو المال كثيرًا، وجاء فى تواريخ القبط أن أول من بناها هامان وزير فرعون، وقد تبقى فيها أساس قصره وبستان، وباب من أبواب بستانه، ويسمونه بئر هامان وماؤه عزب والسواقى تدور فى اثنى عشر موضعًا فيها، وهذه السواقى تروى ما فيها من مزارع قصب السكر، ويزعم القبط أن فى مائها شفاء المريض، وقليوب

كاشفية، وقد سبق أن قلنا إن مائتى كيس تتحصل منها، ويتبعها مائتان وثمانون قرية ويحصل من هذه القرى بعد المصروفات مائة كيس، إنها قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وكانت تغل مدة من الزمن عشرة أكياس ستة وسبعون من قراها، ولقربها من مصر ليس لها من يتولون الإفتاء على المذاهب الأربعة كما تخلو من نقيب للأشراف، ولكن فيها قائد للانكشارية والعزب، وقديمًا كان يوجد فيها ألف حديقة، والآن فيها ثلاثمائة بستان كما أن فيها ألفى بيت وأربعون محرابًا، وسبع خطب، وبالقرب من السوق السلطانية جامع قديم ويتسع لآلاف المصلين، وله سقف يقوم على أربعين عمودًا، ومنارة تتألف من ثلاث طوابق، ولم نشاهد جامعًا آخر، وفيها عشرون مكتبًا للصبيان وثمانية خانات وسبعة مقاه، ومائتا دكان. وركبنا زورقنا الذى جرى بنا فى النيل، وبعد سبعة أميال بلغنا بلدة شبرا التى سبق ذكرها، وهى فى نهاية حدود إقليم القليوبية، وبعدها حدود مصر وتجاهها فى إقليم المنوفية محلة تسمى بحر، وبها تتم حدود المنوفية، وآخر حدها:

بلدة السروى

وهى على بعد أربعمائة ميل من دمياط وعلى شاطئ النيل تقع مدن صغيرة معمورة وقد شاهدت معظم الجوامع المشهورة والكبيرة، والزوايا والمدارس والوكالات المعمورة والمزينة والحدائق والترع واستمعت إلى ألحان البلابل الجميلة فى البساتين، ووصفت مزارع النخيل والحدائق، واكتفيت بذلك حتى لا يطول بنا الكلام وليس على نيل دمياط قرى مثل ما على نيل رشيد، وعلى نيل رشيد توجد مدن كثيرة ولا وجود لعمران فى إقليم البحيرة وأكثره صحراء. ثم مضينا إلى محلة شبرا. وفى الشهر الثالث دخلنا مصر والتقيت مع الكتخدا إبراهيم باشا. وقدمت إليه ما استطعت تقديمه من هدايای فتقبلها منى. وتجولت وشاهدت الديار وتعرفت أحوال الرعايا والبرايا. وسألت ملتزمى الكاشف. ومضينا إلى صحراء البرلس وطعمنا. ونلنا من خضر بك خلعة حسنة وجوادًا. والله عالم السر والخفيا، وخضر بك وزير منير الضمير وسخى جواد وقد تشرفت بالتحدث معه فى الليل والنهار، وقال ذات ليلة أثناء حديثى معه إنه تجول فى البلاد شبرًا شبرًا وسوف أبعث بك إلى حاكم جرجه فقال لى لا تنسى دعاءنا لك بالخير وأمر رفعت أفندى رئيس الديوان أن يكتب لحاكم جرجه أن أوليا جلبى صديق حميم وأخٌ كريم فإذا وصل إليك وأراد التجول فى البلاد فهىء له السبيل.

وأمام مدينة أسيوط غرقت سفينة أميرية تحمل ألف أردب من الغلال. وقد كتب أمراً بالتحقيق فى هذا وأصدرت الأوامر إلى جميع الكاشفين والملتزمين بذلك. وانتهزت هذه الفرصة وخرجت بعد أن قبلت يده. ورجوت إليه أن يكتب رسائل إلى حاكم الفونج. وسألت من رجال الديوان فى مصر. هل فى الإمكان أن أمضى. فقالوا نعم هذا فى الإمكان ولكن الحَرَّ كان شديداً والطريق غير آمنة. وقالوا إن هذه السَّفْرَةَ صعبة شديدة ولكن سوف تمضى فى خير وأمان بمشيئة الله. وكتبت الرسالة لى فكانت أمراً إلى حاكم جرجة.

إن ملك الفونج كان راسخ العقيدة فى الشيخ البكرى، والشيخ محمد، ونلنا منه سبعة رسائل لِنَنَال بها الهدايا، فنلنا جواداً وبساطًا طاهراً، وعشرة كؤوس وثلاثة قسى وكانت ترسل الهدايا ورسائل الصداقة من مصر إلى الجزائر وتونس وفاس ومراكش وبلاد البربر وبلاد الفونج والسودان وبلاد الحبشة واليمن ومكة والمدينة والبادية العربية وكذلك بلاد المغرب.

فقد وصل إلى سفير اليمن فرمان كما أعطى لى رسائل ورسائل مودة، ومنذ عهد السلطان سليم الأول قدم مصر سبعون وزيراً، لأن الحل والعقد كان فى يد الكتخدا لأنه كان وكيلاً يحكم كل شىء برأيه السديد، إلا أنه مع وفور عقله كان يتشاور مع من تقدمت بهم سنهم ليأنس برأيهم، ويعمل به، وكان يكرم كلاً منهم حسب مرتبته، وقد أعطانى أوراقًا لأسلمها لحاكم جرجه وبلاد الفونج، كما أعطانى مصاريف السفر وجواداً، ووصلت إلى الباشا فى اليوم الثالث، فأبلغت حاكم جرجة خبر غرق سفينة الغلال، وبلغت أوامره للكاشفين وغيرهم، ونلت من ملك الفونج رسالة وهدايا، فنلت منه نقوداً وجواداً وتخت شباب وقد أعطيت خدامه عشرة قروش، ودعوت له بالخير وقبلت يده وقلت إلى الملتقى بمشيئة الله، وقرأت الفاتحة، وخرجت وودعت كل الأصدقاء والأحباب ومضينا متوكلين على الله.

* * *